الأدب . . الرسالة والمشروع

إعداد

الدكتور علي يوسف حسين اليعقوبي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الأقصى

ملخّص البحث:

يتكوّن هذا البحث من مجموعةٍ من المرتكزات الرّئيسة التي حدّدت مساره، ومنْ هذه المحدّدات: رساليّة الأدب الإسْلاميّ، التي تعْني أن الأدب الإسلاميّ ذو رسالةٍ أخْلاقيّةٍ نبيلةٍ، وأهْدافٍ ساميةٍ، يسعى لشرف انتشاره عبر الكون كلّه، كما تحدّث البحث عن عالميّة الأدب الإسْلاميّ؛ ذلك الحلم الجميل، واللّوحة البرّاقة، التي تداعب خيال كلّ فنانٍ، وأديبٍ، فقدْ حاول الغرب (بما يمتلكه من سطوة مادية هائلة) فرض هيمنته الفكريّة، واستلاب عقلية الآخر، وتطويعها من أجل خدمته بالباطل، فيما عرف بعالميّة الانتشار، لا عالمية الإبداع، بينما اكتسب الأدب الإسلاميّ عالميّته من خلال منظومة قيمه الإنْسانيّة الراقية، وفي هذا السّياق، ركز البحث على أهمّ معالم النظريّة الإسْلاميّة، وأهمّ مظاهرها انطلاقًا من التصوّر الإسْلاميّ للخالق عزّ وجلّ، وللكون، والإنسان، والحياة، مدعمًا ذلك بنصوصٍ شعريّةٍ تؤيّد الرؤية العامة للبحث، وأخيرًا فالبحث محاولة يسيرة، وحلقة صغيرة، ضمن سلسلة طويلة في هذا المضمار، وفي سبيل التأصيل لنظرية إسلامية مميزة في الأدب والنقد.

Literature..the Message and project

This paper comprises a set of main determining foundations, including: message of Islamic Literature, i.e. it involves a high ethical message as well as elevated goals. Islamic Literature, therefore, seeks dissemination throughout the world. The paper also deals with the universality of Islamic Literature, covering that beautiful dream and brilliant image, entertained by every artist. The West with its huge material power has attempted to impose its intellectual domination and captivate the mindset of the other to be unfairly subservient to the Western mind, what is known as universality of dissemination rather than creativity. Islamic Literature, on the other hand, achieves its universality through a system of its sublime human values. In this context. It further focuses on Islamic conception of the Almighty Creator, universe, man and life. All foundations are illustrated with supportive instances confirming its general outlook. The paper, finally, is a humble attempt and a mere step in a long series with the aim of originating a distinctive theory in literature and criticism

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّدٍ، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واتبع هداه بإحْسانٍ إلى يوم الدّيْن.

أمّا بعد: فإن هذا البحث يتناول فكرة رئيسة ومهمّة، تتمحور حول الدّور الكبير المنوط بالمبدع المسلم، المنبثق عن تلك الأمانة الكونيّة التي حُمِّلهَا عن رضا، وطواعيةٍ، في سبيل نشر الخير، والفضيلة، وإخراج الناس من نكد الدّنيا، وممّا تعانيه البشريّة من بؤسٍ، وشقاءٍ... ولا عيب في أن نصدح بذلك، ولا تثريب على النقد الإسلاميّ إن قصد إلى ذلك الهدف الأخلاقيّ الإنسانيّ العظيم، ولا بأس بهذه المناسبة أن نتحدث عن تلك النظريّات، والمدارس الغربيّة، وعن ظروف نشأتها، فلا شكّ أن هذه المدارس قد أنشئت على خلفياتٍ فكريّةٍ (أيديولوجيةٍ) تستهدف إسعاد المجتمعات الأوروبيّة، فقد كانت تصبح تلك المجتمعات على نظريّةٍ، وما تلبث أن تمسي على أخرى، في محاولةٍ يائسةٍ من الفلاسفة، والمنظرين الأوروبيين لإسْعاد مجتمعاتهم بشكلٍ أوْ بآخر، ولهذا فإننا نرفض رفضًا قاطعًا أنْ يعاب على النقد الإسْلاميّ بسبب توجهه الأخلاقيّ، في حين يمارس النقد الحداثيّ المنبثق عن الفكر الغربيّ ذلك بكلّ أريحيّةٍ، ويسر، وإلا فكيف نفسّر نظرة خالدة سعيد زوج أدونيس إلى الحداثة على أنها "ثورةٌ فكريّةٌ، وليست مجرّد مسألةٍ تتصل بالوزن والقافية...، وإنما هي تعريفٌ جديدٌ للإنسان عبر تحديدٍ جديدٍ لعلاقته بالكون، إنها إعادة نظرٍ شاملةٍ في منظومة المفهومات، والنّظام المعرفيّ...، إنها إعادة نظرٍ في المراجع، والأدوات، والقيم، والمعايير"[(١)]. وانطلاقا من هذه الرّؤى الخطيرة؛ يجب أن ينطلق النقد الإسْلاميّ وبكلّ قوّةٍ نحو الإنْسانيّة جمعاء، بما يتوافق مع فكرنا، وقيمنا، ورؤيتنا للدّور الذي يجب أنْ يتبوّأه المبدع المسلم، مسترشدين بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٢)].

(١) سعيد، خالدة، الملامح الفكرية للحداثة (مجلة فصول)، مج٤، ع٣، سنة ١٩٨٤م.ص٢٥، ٢٦.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

أولًا: مصطلحات البحث:

أدب إسلامي، نقد إسلامي، نظرية النقد الإسلامية، عالمية الأدب الإسلامي.

ثانيًا: أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث أنه محاولة لطرح وجهة النظر الإسلامية في الأدب والنقد، في مواجهة الفكر الغربي؛ إبداعًا ونقدًا.

رابعًا: أهداف البحث:

يستهدف البحث الأدباء والنقاد؛ العرب، والمسلمين، من خلال التأكيد على إمكانية التأسيس لنظرية في النقد والأدب الإسلامي، تصلح لأن تكون نواة للتغيير نحو فكر نقي، وأدب نظيف، يسعى لتأسيس مجتمعات أكثر التزامًا بالقيم، والأخلاق.

خامسًا: مشكلة البحث:

جاء البحث للإجابة على سؤال كبير، وهو: هل نحن نمتلك مقومات نظرية أدبية، ونقدية؟ وقد أجاب البحث عن هذا التساؤل.

سادسًا: أسئلة البحث:

١) ما هو دور الفنان المسلم؛ مبدعًا، ناقدًا؟.

٢) هل للأدب رسالة اجتماعية؟.

٣) هل يحمل الأدب الإسلامي مقومات العالمية؟.

٤) هل يتمتع النقد العربي الحديث بالأصالة، والاستقلالية؟.

٥) هل نحن بحاجة لنظرية إسلامية في هذا الخضم المتلاطم من النظريات؟.

سابعًا: منهج الدراسة:

اعتمد البحث بشكل كبير على المنهج الوصفي، التطبيقي.

ثامنًا: الدراسات السابقة

لقد كتب العديد من المتخصصين في هذا المجال، ونظروا للأدب الإسلامي، والنقد الإسلامي، أمثال د. وليد قصاب من سوريا- في الأدب الإسلامي، ومُحَمَّد حسن بريغش من السعودية- الأدب الإسلامي، أصوله وسماته، د. صالح بيلو من السودان- من قضايا الأدب الإسلامي، د. مُحَمَّد صالح الشنطي من فلسطين-في الأدب الإسلامي.. قضاياه وفنونه ونماذج منه، ابن عيسى بلطاهر من المغرب - النقد في الرؤية الإسلامية، وأبو الحسن علي الحسيني الندوي من الهند - الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الغربية، في الأقطار الإسلامية -، أحمد فرح عقيلان من فلسطين - بين الأصالة والحداثة (نقد ومختارات)، أنور الجندي من مصر - تميز الأدب الإسلامي وأصالته، د.اليحياوي مصطفى من المغرب - الأدب الإسلامي ضرورة لإعادة التوازن للفرد والمجتمع والعالم، وغيرها الكثير من الدراسات التي أسست لقيام نظرية في الأدب والنقد الإسلامي.

المبحث الأول: رساليّة الأدب الإسلاميّ

يجب ألا ننسى -ولو للحظة واحدة- أننا أمّةٌ ذات رسالةٍ، لها أهدافٌ ساميةٌ، تسعى لنيل شرف انتشارها عبر الكون كلّه، ساكنه ومتحرّكه، "وأن النقد في الرّؤية الإسلاميّة الشّاملة؛ رسالةٌ تعليميّةٌ وتوجيهيّةٌ، وهو شريك الأدب والفنّ في بناء الذوق السّليم وتربيته لدى الناس، وتزويدهم بالغذاء الفكريّ والرّوحيّ، وإشراكهم في المتعة النظيفة، وإدخالهم في عالم الأفكار الموجّهة للطّاقات نحو الخير، والمفجّرة للقوى المؤمنة برسالة الحقّ والخير والجمال، في سبيل تأدية وظيفتها الحضاريّة الإيمانيّة، في زمنٍ سيطرت فيه الفلسفات المادّيّة[١] على معظم مناحي الحياة.

وإذا كانت المناهج التربويّة الحديثة تسعى لغرس بعض القيم والمفاهيم الخاصّة بها، من خلال فلسفة الدّولة الحديثة، ورؤيتها لما يجب أن يكون عليه الجيل، فإن مناهجنا- أيضًا- تربويّةٌ أخلاقيّةٌ، تسعى إلى غرس القيم والمفاهيم، ولكن ليس من خلال فلسفاتٍ متناقضةٍ آنيّةٍ قصيرة النفس، بل من خلال شريعةٍ ربّانيّةٍ تستهدف البشريّة جمعاء، وليس من خلال شريحةٍ بسيطةٍ من المجتمع، أو حتى من خلال مجتمعٍ معيّنٍ من المجتمعات البشريّة، ورسالتنا ليست محدودة الزّمان، أو المكان، بل تمتدّ عبرهما معًا، دون أيّة قيودٍ، أو استثناءاتٍ، ومن الملاحظ أن العالم يعجّ بالأفكار، والفلسفات، والاتّجاهات، الفكرية والاجتماعيّة "التي عمدت إلى الأدب فاتخذت منه سلاحًا تناضل به عن نفسها، ومنبرا تعلن من فوقه مبادئها، وأهدافها، ومثالا تصوغ على غراره أبناءها، ومؤيّديها، حتى قال "ستالين" عن الأدباء: "إنهم مهندسو البشريّة"[٢]، ومن البديهيّ أن تتخذ هذه الاتّجاهات من الكلمة سلاحًا، ينشرون من خلاله مبادئهم، وأفكارهم، وتصوّراتهم، ولم يجانبوا الصواب فيما ذهبوا إليه، ذلك أننا نحن - المسلمين- سبقناهم في ذلك، فقد استخدم الإسلام الكلمة سلاحًا قويّا في سبيل نشر هذا

(١) بلطاهر، ابن عيسى، النقد في الرؤية الإسلامية، موقع: البلاغ .www.balagh.com

(٢) ينظر: الباشا، عبد الرحمن رأفت، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - (مطابع جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط 1405هـ = 1985م). ص٨٢، ١٢٠.

الدّين، وإيصاله إلى القلوب، والأفئدة، فقد نافح شعراء الإسلام عن الدّعوة باللسان، جنبًا إلى جنب إخوانهم الذين نافحوا عنه بالسّنان، ألم تكن المعجزة الكبرى للقرآن الكريم، هي هذا البيان العظيم، ثم ألم يصف الحقّ تبارك وتعالى، الكلمة الطّيّبة بالشّجرة الطّيّبة المتجذّرة في الأرض، الباسقة في عنان السّماء، المثمرة في كلّ حينٍ، وآن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [1].

وبإمعان النظر في التيّارات، والفلسفات الحديثة، نجد أنها، تنبثق من نظرةٍ مميّزةٍ، وخاصّةٍ للإنسان، والحياة، والكون، ففي حين تقدّس الرّأسماليّة الفرد، وتمنحه الحرّيّة المطلقة في كلّ شيءٍ، ممّا ينتج عنه الثراء الفاحش لفئةٍ معيّنةٍ من المجتمع، على حساب فئاتٍ أخرى تضمر في نفسها الحقد، والعداوة، والبغضاء..[2]، نرى الاشتراكيّة في الاتّجاه المضاد تتجه نحو الجماعة، والمجتمع، وتلغي دور الفرد حتى في مجرّد التفكير، فالحزب هو الذي يفكّر عنه فيما يعرف (بالإلزام)، فلا يفكّر إلا من خلال رؤى الحزب، ومصالحه[3]، وقد "أخذت الشّيوعيّة في تطبيق مبدأ "الإلزام" القسريّ عن طريق سلطة الحزب، أو سلطة الدّولة، فهي تغدق على الأدباء الملتزمين أصناف الرّتب، والامتيازات، بينما تضيّق الخناق على غير الملتزمين تضييقا يبدأ من تسليط النّقاد (الملتزمين(عليهم، لينتهي بنفي بعضهم إلى مجاهل سيبيريا، أو إدخالهم إلى بعض المصحّات العقليّة"[4]، وكذلك الحداثة، فهي ليست دعوى تتدثر بالعصريّة فحسب، فتحرير القصيدة العربيّة منْ نمطيّة الشكل، والقافية "دعوة شكلِية سطحية، إذ لا يكون الشاعر معاصرًا بمجرد أَن يصف الصاروخ، أو التلفزيون.. فللشعر الحديث موقف من

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤، ٢٥.

(٢) الجهني، مانع بن حماد الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (الرياض، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر ط٣، ١٤١٨هـ)، ج٢، ص٩٢٣.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ج٢، ص٩٣١، ٩٣٢.

(٤) أبو صالح، عبد القدوس، الأدب بين الالتزام والإلزام، (٢٠١٠/٧/٢١م) موقع الألوكة.

الكون كله، لهذا كان موضوعه الوحيد، وضع الإنسان في هذا الوجود"[١].

وإن كنا لسنا بصدد دراسة هذه الفلسفات الآن، ولكنْ.. وفي وسط هذه الحيرة، والقلق الذي تتقلّب فيه البشرية؛ يجب علينا أنْ نحدّد رؤيتنا ونوضّح منهجنا الذي نصبو إلى تحقيقه، ونسعى لتجسيده في واقع البشريّة جمعاء، وفي حياة مئات الملايين من المسلمين الذين يدينون برسالة الإسلام، وما ينشأ عن هذا المنهج من تصوّرٍ للكون، والإنسان، والحياة، وما يترتب على هذا التصور من سلوك، وممارسات، وخصوصًا أننا في زمنٍ اختلطت فيه الأوراق، وتمازجت فيه الألوان، فنحن أحوج ما نكون إلى منهجٍ أدبيٍّ واضحٍ، يعبّر عن تصوّراتنا، وقيمنا، وعقائدنا، وتطلّعاتنا، وآمالنا، وآلامنا، منهجٍ يبني نظرتنا وتعاملنا مع الكون، والإنسان، والوجود من حولنا، وبعبارةٍ أكثر صراحة، وأشدّ وضوحًا، نحن بحاجةٍ إلى أدبٍ إسلاميٍّ معاصرٍ، يعالج قضايانا، ويواكب روح العصر؛ لأنه بضعة من هذا الدّين الصّالح لكلّ زمانٍ، ومكانٍ، وحاجتنا لمثل هذا الأدب لا تقلّ بحالٍ من الأحوال عن حاجتنا لنقدٍ يوازيه، ويسير بمحاذاته؛ يهديه، ويرشده، ويقوّم اعوجاجه، ويؤصّل له الأصول، ويوضّح له معالم الطّريق؛ أدبٍ يعبر عن ذواتنا، وينطلق من أصولنا، وقواعد أخلاقنا، ويصوغ رؤانا، وأفكارنا، وإبداعاتنا.. بعيدًا عن الأبعاد الفلسفيّة، والأفكار الهدّامة، والنظريّات المستوردة.

وعلى الرّغم من موجة الماديّة العارمة التي تجتاح العالم المتحضّر اليوم، وما تعانيه البشريّة من قحطٍ في العواطف، وجفافٍ في المشاعر، جراء سيطرة الآلة، والأرقام، وبعد أنْ تزايد الاهتمام بالفلسفات التشكيكية: كالوجوديّة، والتفكيكيّة، والماركسيّة، والبنيويّة، والعناية بالتصورات الإباحية والعدمية، مثل: التحليل النفسيّ الفرويديّ، وأدب اللامعقول، والنظريات الجنسية، فسوف يظلّ للكلمة المؤمنة دورها، وللبيان سحره، ووهجه الذي يعانق الإنسانيّة البائسة، ليخرجها من حالة النكد، والضلال، والتيه، إلى الطمأنينة، والاستقرار، والأمان، إلى نور الله الذي يستشرف آيات الله تعالى في كلّ شيءٍ، لتستقر الفكرة الإسلامية

(١) شكري، غالي، شعرنا الحديث إلى أين (القاهرة، بيروت، دار الشروق، ط١، ١٤١١هـ = ١٩٩١م) ص١١٤.

النظيفة، الطاهرة بديلًا حضاريًّا، وحلاً ناجعًا لجميع المشاكل التي تواجه الأدب، والفن، والجمال بصفةٍ خاصّةٍ، ومشاكل الإنسان بصفةٍ عامّةٍ.

المبحث الثاني: عالميّةُ الأدب الإسلامي

في مستهلّ حديثنا عن عالميّة الأدب، تلك اللّوحة البرّاقة الجذابة، والحلم الجميل الذي يداعب خيال كلّ فنانٍ، وأديبٍ..، يجب على أدبائنا أن يقفوا وقفة ثقةٍ، وتأمّلٍ، ومراجعةٍ أمام هذا المصطلح البرّاق، كي تتضح الرّؤية، ويتسنى لنا معرفة حقيقة، وعوامل انتشاره وعالميّته، فقد استطاع الغرب أن يفرض علينا تراثه الأدبيّ، ونجح في إقناع الأمم الهزيلة، والمستضعفة، المبهورة به، وبعالميّة تراثه، وإبداعه وحده، ووضع نصب أعيننا أعمال كبار كتابه (كما يراهم هو، ومن خلال ميزانه، ومقاييسه هو)، ثمّ قال لنا: احذوا حذوهم، والزموا طريقهم، فما كان منا إلا أن قلنا: سمعنا وأطعنا، غافلين عن بعض الحقائق الهامّة، والخطيرة، ومنها:

1 – أن عالميّة هذه الآداب، ونماذجها، حكمٌ قضى به غيرنا، فأخذناه قضيّة مسلّمة، وغير قابلةٍ للنقاش.

2 – أن هذه الآداب لا تخلو من مآخذ تؤخذ عليها من خلال معاييرنا، بل فيها ما يسيء إلينا، وإلى ديننا، ومن ثمّ إلى الإنسانيّة التي تدّعي تمثيلها.

3 – أننا نمتلك نماذج في تراثنا، وحاضرنا الأدبيّ، أفضل ممّا عندهم، ولكنهم هم الأقوى، والأقدر، وصوتهم هو المسموع [1].

ولهذا فإن مسألة العالميّة في الأدب شيءٌ نسبيٌّ، وبعبارةٍ أكثر دقة ووضوحًا، وموضوعيّة: هي الابن الحقيقيّ للقوّة والظّلم الذي يمارسه الغرب على المجتمعات المستضعفة، فما يمكن اعتباره عالميّا في مكانٍ مّا، قد لا يكون عالميّا في مكانٍ آخر، فمن غير المعقول أن نسلّم لكلّ ما جاءنا من الحضارة الغربيّة؛ غثّها وسمينها، فهم يعبّرون عن رؤاهم وتصوّراتهم للكون،

(١) ينظر: ابن حميد، صالح بن عبد الله، الأدب المعاصر: رؤى في المضامين – (مقال)، مجلة الادب الإسلامي، (مج١٤، ع٥٦، رمضان – ذو القعدة ١٤٢٨هـ = تشرين الأول (أكتوبر) – كانون الأول(ديسمبر) ٢٠٠٧م، ص٦٢ – ٦٣.

والإنسان، والحياة، بطريقتهم الخاصّة، وبمنظورهم هم، فإذا عبّر الأديب منهم عن تصوّراتهم ورؤاهم بصدقٍ وأمانةٍ وموضوعيّةٍ؛ كان -في نظرهم- أديبًا يستحقّ الإشادة، والتقدير، والوقوف إلى جانبه، ويجب ألا ننسى ونحن نناقش هذه المسألة أنهم يمتلكون أعظم آلةٍ إعلاميّةٍ في الأرض، يرفعون من خلالها من يشاؤون، ويخفضون من يشاؤون، ولعلّ هذه إحدى العوائق التي تواجه مسيرة الأدب الإسلاميّ، وعلى العموم فالمسألة بالجملة لا تعدو أن تكون مسألة صراعاتٍ؛ مادّيّة كانت، أم فكريّة، فمن يكسب الجولة يستطيع أن يفرض رؤيته وأفكاره على المستضعفين من الأمم المقهورة، ولكن يبقى الصّراع الحضاريّ هو الأهمّ، وهو الفيصل، وإن غيّب بعض الوقت.

وهنا لابدّ من تأكيد مسألةٍ هامّةٍ، وهي أن الأدب الإسلاميّ، هو الأدب الملتزم بالإسلام سلوكًا، وشريعة، وعقيدة، ومنهج حياةٍ، وهو يستقي قيمه، وأفكاره، من منهله العذب؛ الإيمان، والتوحيد، وهما عنصران أساسان، ومكوّنان رئيسان، من مكوّناته الفطريّة، كما أن الأدب بشكلٍ عامٍّ ظاهرةٌ إنسانيّةٌ، فطريّةٌ عند كلّ الشّعوب، منذ فجر التاريخ، ومن هنا يلتقي الأدب، مع التوحيد، والإيمان، أي مع الفطرة الإنسانيّة، وبهذه الرّابطة بين الإيمان، والتوحيد، يمكن للموهبة أن تنطلق لتعبّر عن كلّ موضوعات الحياة[١] على اختلافها وتنوّعها.

وما دمنا نتحدّث عن العالميّة في مجال الأدب والفنّ، فلا بدّ من التعريج على تلك القيمة المعنويّة الكبيرة، التي يكتسبها الأدب المتصف بهذه الصّفة، ذلك أن العالميّة كلمةٌ لها بريقٌ خاصٌّ في الأدب والنقد، وهي صفةٌ يتباهى بها الأديب الذي يوصف إبداعه بها، وحلمٌ تسعى إليه أممٌ كثيرةٌ، لأنها في أبسط دلالاتها شهادةٌ للإبداع والتميّز والتفوّق، ودليل قدرةٍ على استيعاب التجربة الإنسانيّة العامّة، وقد عزا عبدالباسط بدر[٢] العالميّة في هذا المجال

(١) ينظر: النحوي، عدنان علي رضا النحوي، الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته (الرياض، دار النحوي للنشر والتوزيع ،ط٣، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م) ص٦١، ٦٢.

(٢) ينظر: بدر، عبد الباسط بدر، عالمية الأدب الإسلامي - (مقال)، مجلة الأدب الإسلامي، السنة الثانية، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، مج٢، ع ٥، ص٣-٤.

لعاملين رئيسين، هما:

١- عالميّة الانتشار:

حيث تسعى دولٌ كثيرةٌ -وبالذات الغنيّ منها- لتحقيق أكبر قدرٍ من العالميّة، من خلال ترجمة غرر إنتاجها الأدبيّ، إلى اللّغات الحيّة الأخرى، أو من خلال عقد الندوات، والمؤتمرات، ورعاية الكراسي العلميّة في الجامعات المختلفة، وبهذا الجهد ينتشر الأدب خارج الجغرافيا المكانيّة المحلية، وقد يتعدّى إلى خارج جغرافيا الزّمان، واللّغة.

٢- عالميّة الإبداع:

وثمّة نوعٌ آخر من العالميّة لا يقتصر على القدرة على الانتشار عبر الحدود، وإنما يتجاوزها إلى الإبداع الفنيّ؛ ذلك أن التجارب الإنسانيّة، ومن خلال ملامحها الرّئيسة، تتكرّر في المجتمعات المختلفة على اختلاف لغاتها وتباين ظروفها، كما نجد النّصوص الأدبيّة تجتمع على مضامين وموضوعاتٍ وصياغاتٍ متقاربةٍ للصّورة الفنيّة، حيث تصبح هذه الأعمال التي تتصف بهذه الصّفات المشتركة فصولًا متنوّعة في كتابٍ واحدٍ كبيرٍ، يحتوي على مجموعةٍ كبيرةٍ من العناصر المتماثلة لتبني كيانًا أدبيًّا عالميًّا، يحسّ به ويتذوّقه المتذوّقون على اختلاف مشاربهم، وتعدّد ألسنتهم وتباعد أمكنتهم، وهذا اللون من العالميّة أقوى آصرة، وأعمق تجربة، وأكثر التصاقا من عالميّة الانتشار، التي قد تعتمد بشكلٍ رئيسٍ على القدرات الماديّة، أكثر من اعتمادها على القدرات الفنّيّة، والإنسانيّة، والأخلاقيّة.

مظاهر عالميّة الأدب الإسلاميّ

١- التفوّق الرّوحيّ والخلقيّ والاجتماعيّ:

ولعلّ من أكثر المظاهر عالميّة، هو هذا التفوّق الرّوحيّ والخلقيّ والاجتماعيّ الذي يتمتع به الفكر الإسلاميّ العظيم، وهذا التكامل الفريد من نوعه، والذي لم يتوفّر لأيٍّ من الدّيانات الأخرى على الإطلاق؛ حيث يبدو جليًّا من خلال تلك المفارقات الواضحة والناجمة عن المادّيّة المفرطة في عصر الآلة، والتي حوّلت الإنسان إلى ترسٍ في آلة صمّاء،

صنعها بنفسه، ثمّ قام بعبادتها، وتقديسها، فزادته ضلالًا وتيهًا وتشتّتا، فامتهنتْ كرامته وأهدرت قيمته، وجعلته مجرّد رقمٍ في هذه الحياة، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعدّ، وهذا يقودنا للحديث عن ذلك السّرّ الكبير، والتفوّق العظيم للمجتمع المسلم على سائر المجتمعات الجاهليّة، فقد كان هذا تفوّقًا في البناء الخلقيّ، والرّوحيّ، والاجتماعيّ أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ، ولم يكن تفوّقا مادّيّا؛ عسكريّا، أو اقتصاديًا فحسب، والشّواهد على ذلك كثيرةٌ، ومعروفةٌ لدى كلّ من يقرأ أحداث التاريخ بإنصافٍ، وموضوعيّةٍ، فلم ينتصر المسلمون يوما، بِعَدَدِهِم، ولا بِعُدَدِهِم، ويوم أن افتخروا بكثرتهم، عاتبهم ربّهم عتابًا شديدًا؛ حيث أصاب عقيدتهم بعضُ الضّعف، والخلل، فأنزل سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [1]، وبهذا التفوّق السّاحق على الجاهليّة، في بنائها الرّوحيّ، والخلقيّ، والاجتماعيّ، ومن ثمَّ السّياسيّ، والعسكريّ، اجتاح الإسلام الجاهليّة، في الجزيرة العربيّة، وفي جناحيها؛ فارس، والرّوم، ومن ثمّ انساحت الجيوش الإسلاميّة، وفتحت البلدان؛ شرقا، وغربا، بالسّيف، وبالمصحف معا، لقد كان تفوّقا إنسانيّا أوّلا وقبل كلّ شيءٍ، تفوّقا في كلّ خصائص الإنسانية، ومقوّماتها، لقد كان ميلاد إنسانٍ جديدٍ، لم تعرفه الإنسانيّة من قبل، ولن تعرفه من بعد، ولن يعيد التاريخ له مثلًا[2].

٢- الفطرة:

كما سنتحدّث الآن عن قمّة سامقةٍ من قمم العالميّة، والإنسانيّة، لا يدانيها قمّةٌ، إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولكن هذا (الإنسان) منهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضّلالة- لعلمه المسبق (سبحانه)- وهو العليم الحكيم، بانحراف فطرته، وسوء طويّته وسريرته - يقول الحقّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[3]، ولقد خير -سبحانه-

(١)التوبة: ٢٥.

(٢) ينظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن (جدة، المملكة العربية السعودية، دار العلم للملايين، ط١٢، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م) مج٢، ج٥، ص٦٧٣ وما بعدها.

(٣) سورة الشمس : الآيتان ٧- ٨.

الإنسان، وأعطاه حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، بين الضلالة والهدى، دون غصب، أو إكراه، فقال عز من قائل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (١) فمع التقاء الفطرة بالإيمان، والفكرة السّويّة بالمنهج القويم، ينبع الأدب الإسلاميّ، وتسطع إنسانيّته، وعالميّته، ورحمته، وحدبه على كلّ المخلوقات في هذا الكون العظيم، ويعقّب سيّد قطب – يرحمه الله– على هذه القضيّة الكبرى، والتي تمسّ الإنسانيّة بشكلٍ عامٍّ، وعلاقاتها بخالقها، وبالكون، وبالوجود، فيقول: "إنها قضيّة (الإنسان) التي لا تتغيّر، لأنها قضيّة وجوده في هذا الكون، وقضيّة مصيره، قضيّة علاقته بهذا الكون، وبهؤلاء الأحياء، وقضيّة علاقته بخالق هذا الكون، وخالق هذه الأحياء..، إنها قضيّة الوجود، والإنسان"(٢)، وعلى هذا.. وتساوقًا مع هذه المسألة الخطيرة، فمن الواجب على الأديب المسلم، أن يعبّر عن مثل هذه القضايا الخطيرة، والحسّاسة، والتي تمسّ حقيقة النفس الإنسانيّة، بالشّكل المناسب؛ بالكلمة الجميلة، أو الصّورة المعبّرة، أو المشهد التمثيليّ الهادف ليلامس من خلال ذلك كلّه المشاعر الإنسانيّة؛ حيثما وجدت.

وهنا لابدّ من التركيز على (عالميّة الفطرة)، التي تحدثنا عنها آنفا حيث يجب علينا –نحن المسلمين– باعتبارنا أصحاب رسالةٍ إنسانيّةٍ، ومنهجٍ عالميٍّ، أن نبرزها، وأن ندعو إليها، ونعني بـ (عالميّة الفطرة)، مخاطبة الفطرة لدى الآخر، والتركيز والإلحاح عليها، حتى يصبح خطابنا بمثابة (الفكرة الملحّة) لأنها هي العامل المشترك الأعظم بين البشر أجمعين، حتى غير المسلمين، ألم يولد الإنسان على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو يمجّسانه، أو ينصّرانه؟ ألم يدخل الناس من شتى الدّيانات؛ السّماويّة منها، وغير السّماويّة في الإسلام، ألا يدلّ ذلك على عودة هؤلاء إلى فطرهم النقيّة حين دخلوا هذا الدّين، ألا يعني ذلك أن الفطرة هي العامل المشترك بين بني البشر..؟ كلّ ذلك يدعونا إلى تفعيل ذلك المصطلح بكلّ قوّةٍ، واقتدارٍ،

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩

(٢) قطب، في ظلال القرآن، مج٢، ج٧، ص١٠٠٤.

ودون خجلٍ، أو وجلٍ، وهذا ما يلفت النظر في إحدى قصائد عمر بهاء الدّين الأميريّ، والتي تعدّ من عيون الشّعر الإنسانيّ، لما فيها من معانٍ، وأفكارٍ، تلامس الفطرة البشريّة بشكلٍ عامٍّ؛ إنها أزمةٌ فكريّةٌ، يتعرّض لمثلها كلّ أصناف البشر؛ مسلمهم وغير مسلمهم، ويتناولها كلٌّ من زاويته، ومن رؤيته، ومن تصوّره للخالق (ﷻ)، وللكون والوجود، ومن هنا تبدأ المعاناة، ويبدأ الافتراق، وتتضح المناهج، وتتبلور المواقف، ويبدأ الصّراع الحقيقيّ داخل الإنسان ذاته، إنها قضيّة الغيب، قضيّة الوجود الإنسانيّ في هذا الكون، وغايته، من أين جاء، وإلى أين هو ذاهبٌ، وأين ستكون النّهاية، إنها أسئلةٌ ضخمةٌ.. أكبر من القدرات المحدودة للعقل البشريّ، قضايا، وأسئلةٌ بحاجةٍ إلى الأديب المسلم الذي تشرّب الإيمان في قلبه، ونفسه، ومشاعره، الأديب القادر على توصيل فطرة الإيمان، والتوحيد إلى كلّ الناس، فهما المنقذ الوحيد لمثل هذا التّيه، الذي سيذهب بالإنسان إلى صحراء مقفرةٍ، مجدبةٍ، نهايتها الهلاك المحتوم. وها هو الأميريّ يواجه أزمته الفكريّة، فتتزايد آلامه، وتتبدّد أحلامه، وتتملّكه الحيرة، لماذا يختفي الغد خلف أستار الغيب؟!، ولماذا لا ينكشف هذا المجهول عن الحقيقة الكبرى؟! لماذا هذا العذاب النفسيّ، وهذا التطلّع الذي لا ينتهي.. قضايا كبيرةٌ يقف الفكر البشريّ أمامها مشدوها مذهولا، وهنا يأتي دور الإيمان، والتوحيد، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، حيث تتحوّل تلك العاصفة الهوجاء، وذلك البحر الهائج المائج بالشّكوك والحيرة..، إلى صفاءٍ، وهدوءٍ، وأمنٍ، وطمأنينةٍ.. فحيرة الشّاعر لا "تتحوّل إلى تيهٍ ينفصل فيه عن الكون، وعن الله، وإلى شرودٍ لا يهتدي فيه إلى مَعْلمٍ من معالم الطّريق، وإنما تخرج به روحه من سجن ذاته، الذي أغلقته الحيرة.. وعندئذٍ يقع التجاوب –الفطريّ– بين روحه، وروح الكون الكبير"[(١)]، وهكذا تكون النّهاية الطّبيعيّة لمثل هذه المواقف غير الطّبيعيّة، حيث حيث تتدخّل الرّعاية الإلهيّة، التي لا تترك هذه (الذرة) الضّئيلة وحدها، في مواجهة هذه القضايا الضّخمة، وهنا تقرّ النفس، وتطمئنّ الرّوح، وتهدأ المشاعر.

(١) قطب، محمد، منهج الفن الإسلامي، (بيروت، القاهرة، دار الشروق، ط٦، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م) ص١٩٣.

يقول الأميريّ:

فكَّـــرتُ في آلامـــيَ النَّامِيَـــهْ
وفِي أمـــــانيّ وأحلاميَـــــهْ
وفي طريـــقِ الغيـــبِ أشـــتفهُ
وفِي مجاهيـــلِ الغـــدِ الغَافيـــهْ
وثمّ في الحـــيرةِ ســـاحتْ بِيَـــهْ
عـــوالمُ الأكـــوانِ وَأفكارِيَـــهْ
فَصِـحْتُ مـأخوذًا بإبـداعِهَا
وَســـيرهَا هاديـــةً وَاعيِـــهْ
حاشـاهُ أن يقضـي خلَّاقُهَـا
بتركـــي فِيهَـــا ذرةً نَابيـــهْ [1]

وفي الجهة المقابلة؛ حيث يتغلغل التّيه، وتتمكّن الحيرة والقلق، والغربة والشّكّ؛ ولا تعود النفس قادرة على المقاومة.. هنا تتزلزل الأركان، وتدكّ الحصون، وتنهار المبادئ، ليزداد الصّراع حدّةً، وبروزًا، بين واقعٍ مريرٍ، ومستقبلٍ مجهولٍ، وقد تكون تجربة إيليا في قصيدته (الطّلاسم) خلاصة فلسفته، ونظرته الحائرة، التائهة تجاه الوجود بشكلٍ عامٍّ، فقد "تتوزّع هذه الفلسفة في اتّجاهات: الوجود الذاتيّ والموضوعيّ، المصير الإنسانيّ والكونيّ، قضايا الخير والشّرّ"[2]، فها هو يصوّر حيرته المغلّفة بالعمى، والتّيه، والضّلال فيقول:

جئـــتُ لا أعلـــمُ مـــن أيـــنَ؟ ولكـــنّي أتيـــتُ

(١) الأميري، عمر بهاء الدين مع الله، ديوان (بيروت، دار الفتح، ط٢، ١٣٩٢هـ) ص٩٥.
(٢) العزب، مُحَّد أحمد العزب، ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي (القاهرة، دار المعارف، ط ١٩٧٨م، سلسلة اقرأ) ص١٠٧.

ولقـــدْ أبصـــرتُ قُـــدامي طريقًـــا فمشـــيتُ

وسَـــأبقى ســـائرًا إن شـــئتُ هـــذا أم أبَيْـــتُ

كيفَ جئتُ ؟ كيفَ أبصرتُ طريقي؟ لستُ أدري[١]

ونتيجة لهذا التصوّر الشّائه عن الوجود، وهذا الغبش، والعمى، راح يدين قضيّة الموت التي تبدو في نظره غير عادلةٍ، فيقول:

إن يكُ الموتُ قَصاصًا: أيّ ذنبٍ للطّهارةْ

وَإذا كَـانَ ثـوابًا: أيُّ فضـلٍ للـدّعارَةْ

وإذا كـانَ وَمَـا فيـهِ جـزاءٌ أو خَسَـارَةْ

فَلِـــمَ الأسمـــاءُ إثمٌ وَصـــلاحْ

لســـــــــــــتُ أدرِي[٢]

كما راح يشكّك في البعث والنّشور، ويتساءل عن بعض الأحوال التي يبعث عليها البشر يوم القيامة، كلّ ذلك مغلّفٌ بحالةٍ نفسيّةٍ متمرّدةٍ، وشاكّةٍ في كلّ ما يدور في هذا الكون، ومن خلال نوعٍ من المقابلة، والتضاد، فيقول:

إنْ أكنْ أُبعثُ بعدَ الموتِ جُثمانًا وَعَقلا ... أتُرى أُبعثُ بَعضًا ؟ أمْ تُرى أُبعثُ كُلَّا

أتُرى أُبعثُ طِفلًا ؟ أمْ تُرى أبعثُ كَهْلا ... ثمّ هـلْ أعـرفُ بعدَ المـوتِ ذَاتِي؟

لستُ أدري [٣]

هذا.. ومن الملاحظ على مجموعةٍ كبيرةٍ من قصائد إيليا أبو ماضي سيطرة (اللاأدريّة)[٤]

---

(١) أبو ماضي، إيليا، الجداول، ديوان، قصيدة الطلاسم، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٧٢م) ص١٣٩.

(٢) المرجع نفسه: ص١٥٤.

(٣) ينظر: أبو ماضي، إيليا، الجداول، ديوان، ص١٣٩، ص١٤٢، ص١٤٨، بص١٥٣، ص١٥٨، ص١٦١، ص١٦٣، ص١٦٣،

(اللاأدريّة)[1] على كثيرٍ من قصائد (الجداول)؛ حيث يحاول الشّاعر "أن يستكنه سرّ المصير الإنسانيّ، والكونيّ، فيجيب بهذه الكلمة الفاجعة: "لست أدري".. وهكذا يشهر الشّاعر هذه (اللاأدرية) في وجه كلّ المغاليق الذاتيّة، والموضوعيّة، والمصيريّة.."[2]. والنماذج المتمرّدة كثيرةٌ، وممتدّةٌ على مساحاتٍ واسعةٍ من دواوين الشّعراء، الذين اصطبغت أشعارهم بالصّبغة الوجوديّة المتمرّدة، الثائرة، والتي تتعارض مع كلّ القيم الدّينيّة، والخلقيّة، والاجتماعيّة[3]. وإذا ما قارنا بين هذه التجارب البشرية، أدركْنا الفرق الواضح بين نظرة الإسلام، ونظرة "الوجوديّة" الفرق بين التجربة في الحسّ المضلّل الشّارد، والتجربة ذاتها في الحسّ المسلم المهتدي إلى فطرة الكون، والمهتدي إلى الله"[4]، وهنا تتمايز المعالم، وتتباين الخطوط، ويتضح أن العالميّة في نظر الناقد المسلم تتجلّى في أبهى صورها عندما ينطلق الأديب المسلم ليدلي بدلوه الّذي يفيض خيرًا وبركة، رحمة وحنانا وعدلًا، ليعالج مشكلات الإنسان، على ضوء الخصوصيّة، والتميّز الّذي أنعم الله به عليه، ومن خلال علاقته الوطيدة بخالقه (ﷻ)، خالق هذا الكون، ومبدعه وخالق هذا الإنسان، فهو سبحانه وحده الأعلم بما يصلحه وبما يفيده وينفعه.

كما يهدف الناقد الإسلاميّ أثناء مقارباته النقديّة للأعمال الأدبيّة –حتى تلك الصّادرة عن غير المسلمين– أن يكشف "عمّا ينطوي عليه العمل الأدبيّ من توجيهاتٍ إنسانيّةٍ –بما يشمله من قيمٍ خلقيّةٍ، ومعتقداتٍ خالصةٍ– أو توجيهاتٍ غير إنسانيّةٍ شاذةٍ أو منحرفةٍ"[5].

٣– الاستيعابية:

(١) ينظر: المرجع نفسه: ص١٥٦، ١٥٧.
(٢) العزب، حمد أحمد العزب، ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي، ص١٠٩، وينظر أيضًا: أبو الوفا، محمود، شعري، ديوان، (القاهرة، دار المعارف المصرية، ط ١٩٦٢م) ص١٣٤.
(٣) ينظر: أبو الوفا، محمود، شعري، ديوان، ص١٣٤.
(٤) قطب، منهج الفن الإسلامي، ص١٩٤.
(٥) المرجع نفسه: ص١٥١.

ولعلّ من أوضح معالم إنسانيّة هذا الأدب الإسلاميّ أنْ عدَّ بعض النقاد أمثال: مُحَمَّد قطب وعماد الدّين خليل وآخرين.. إنتاج غير المسلمين –إنْ وافق الفطرة– أدبًا إسلاميّا؛ مثل إنتاج ج.م سينج الإيرلندي، وطاغور الهندي(١) فهو أدبٌ يستمدّ فكرته، من شمولية، ومرونة الفكر الإسلاميّ وإنسانيته، ومن المنظومة الفكريّة الإسلاميّة، التي تتسم بالبعد "عن العنصريّة، والاستعلاء بالدّم، أو اللّون، والتماسه روح الإخاء البشريّ..، كلّكم لآدم، وآدم من ترابٍ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقوى"(٢)، وتعدّ المساواة، والعدل، من القيم الإنسانيّة المهمّة التي يجب على الفنان المسلم تجسيدها كلمة شاعرة، أو قصة مؤثرة، أو مسرحيّة ناقدة، أو صورة معبرة... فلقد " تبيّن أن أعظم ما جذبهم إلى الإسلام؛ هو روح العدل، والمساواة، التي يدعو إليها القرآن الكريم، والنظافة التي يتحدّث عنها الرّسول (ﷺ)؛ نظافة اليد، والقلب، واللّسان.. هذه المعاني التي هزّت الوجدان الغربيّ هزّا شديدًا، لأنه لا يجدها في واقع الحياة المعاصرة، وهي صورةٌ من صور عالمٍ مضيءٍ.."(٣)، ويقول عبد الكريم دانتون: "بهرتني المودّة التي في العالم الإسلاميّ، كانوا يقدّمون العون دون مقابلٍ، رائدهم القناعة، ورضا النفس، بينما كنت أنفر من نمط الحضارة الغربيّة، لما فيها من مادّيّة الجفاف الرّوحانيّ، والفراغ العقليّ"(٤)، ويقول إيفادي فتراي: "القرآن هو آخر وحيٍ، ومحمّد هو خاتم الرّسل، والقيمة المجتمعة للإسلام تجعل الفرد مرتبطا بمجموعةٍ عالميّةٍ، والإسلام يجبر على الاعتراف بكلّ الملل، وبكلّ الرّسل السّابقين، وأن العقل الأوروبيّ لا يرفض الإسلام، إذا عرف حقيقته، وإذا أتيحت له فرصة النظر دون أن تكرهه قوى أخرى على التعصّب لفكره

---

(١) المرجع نفسه: ص١٨٣، ١٩٩، ٢١٢، على ما لنا على هذا الرأي من تحفظ.

(٢) ينظر: الجندي، أنور، خصائص الأدب العربي، (بيروت، ط دار الكتاب اللبناني، و القاهرة، دار الكتاب المصري، د.ط) ص٣٢، ٣٣.

(٣) الجندي، أنور، عالمية الدعوة الإسلامية (سلسلة: على طريق الأصالة، ٣٨) (القاهرة، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع) ص١٤.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢.

القديم"[1]، فهذا النصّ برهان صدقٍ على أن الأدب الإسلاميّ هو الثمرة النّاضجة للفكر الإنسانيّ المجرّد من الهوى، والتعصب.

المبحث الثالث: مظاهر النظريّة الإسْلاميّة

إذا كانت الآداب الغربيّة قد استندت في وجودها على أساسٍ فكريّ فلسفيّ ينتظم آراءها، ويكسبها التّرابط، والانسجام، حيث بعثت تلك الآداب تراثها القديم ممثلا في الآداب اليونانيّة، والرومانيّة، فقدّسته، وعظّمته، متخذة من الفكر اليونانيّ، والإغريقيّ مثلًا أعلى، على ما في ذلك التّمثل من نتائج فكريّةٍ، وأخلاقيّةٍ خطيرةٍ، فإنّ النّظريّة الإسلاميّة تعتمد على عقائد فكريّةٍ، وأخلاقيّةٍ ثابتةٍ. وعلى المبدعين، والنقاد تمثل هذه القيم والمعتقدات لتكون المنطلق الحقيقيّ الذي يصْدر عنه الأديب والنّاقد المسلم، ولعلّ منْ أهمّ مظاهر النّظريّة الإسْلاميّة:

١- التصور الإسلامي للخالق(ﷻ):

إن التصوّر الإسلاميّ للخالق (ﷻ)، يتسم بالوضوح، والبساطة، والصّحّة، واليسر، والنقاء، بشكلٍ مغايرٍ لكلّ التصوّرات الموجودة، سواءٌ ما كان منها في الأديان السّماويّة، التي حرّفت فيما بعد، أو العقائد الأرضيّة التي حاول البشر، واجتهدوا أن يضعوا من خلالها تصوّراتٍ معيّنة لحقيقة (الألوهيّة)، وهو تصوّرٌ بريءٌ من وثنيّة الرّومان، واليونان، والفرس، كما برئ من انحرافات اليهود، وتعقيدات النصارى[2]، "والتصوّر الإسلاميّ يبدأ من الحقيقة الإلهيّة التي يصدر عنها الوجود كلّه..، يصوّره الإسلام في أوضح صورةٍ وعاها الحسّ البشريّ..، الله هو الخالق، المدبّر، القادر، المهيمن..، كلّ ما في الوجود خلْقه، ولا خالق غيره في السّماوات، ولا في الأرض، وهو القادر لا حدّ لقدرته، المهيمن على كلّ خلقه..، لا يقع في

(١) المرجع نفسه، ص١٢.

(٢) ينظر: الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب، والنقد، ص٩٧.

وأيضًا:القرطبي، مُحَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا، (القاهرة، دار التراث العربي، ط ١٣٩٨هـ)، ص٤٧، ٥٢.

الوجود شيءٌ إلا ما يريده أن يقع، ولا يكون شيءٌ إلا ما أراده أن يكون.. صورةٌ بسيطةٌ لا تعقيد فيها ولا غموض، ليس فيها شيءٌ من اضطراب الأساطير، واختلاطها، وحيرتها، وتضاربها، وخرافاتها.."[١].

ويحسن بنا في هذا السّياق أن نستمع إلى الأمير "كايتاني"[٢] في مقارنةٍ بسيطةٍ بين المسيحيّة وما أصابها من عقمٍ، وسفسطةٍ، وتعقيدٍ، وبين الإسلام ببساطته، ووضوحه، ويسره؛ حيث يقول: "إن الجدل المذهبي، والسّفسطة العقديّة بين رجال اللاهوت المسيحيّ، أدّيا إلى زعزعة أصول الفكر الدّينيّ المسيحيّ عند النصارى، ولما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد من الصّحراء، لم تعد المسيحيّة قادرة على إغراء هذا الدّين الذي بدّد -بضربةٍ من ضرباته- جميع الشّكوك التافهة، وقدّم للناس كثيرًا من المزايا الجليلة، وذلك إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة، التي لا تقبل الجدل، وعند ذلك ترك الشّرق المسيحيّ المسيح، وارتمى في أحضان نبيّ العرب"[٣]. وهنا نتساءل عن التصوّر الذي جعل نصارى الشّرق يتخلّون بهذه البساطة، والسّرعة، عن النصرانيّة، والدّخول في الإسلام، والارتماء في أحضان نبيّ الصّحراء، العربيّ؟

* ملامح التصوّر الإسلاميّ للخالق (ﷻ):

يعتبر التصوّر الإسلاميّ للخالق (ﷻ)، هو الأكثر التصاقًا بالفطرة الإنسانيّة، إلا من شذت فطرته، وانتكست طبيعته، ولقد شاهدنا كيف انتشر الإسلام في كثيرٍ من أصقاع الأرض بمجرّد الالتقاء بالأفراد المسلمين، الذين خالط الإسلام بشاشة قلوبهم، فانعكس ذلك على سلوكهم، ومعاملاتهم المنبثقة من مبادئهم الإسلاميّة، فقد دخل الإسلام أكبر دولةٍ

(١) قطب، منهج الفن الإسلامي، ص١٦، ١٧.

(٢) وهو أحد كبار المستشرقين النصارى، إيطالي الجنسية، قام برحلات إلى الشرق، ولا سيما الهند وإيران ومصر والشام، وجمع مكتبة عربية عظيمة، جعلها بعد وفاته للمكتبة الإيطالية، وكان يحسن سبع لغات، منها العربية والفارسية، ألف بالإيطالية كتاب تاريخ الإسلام.

(٣) كايتاني، ليون، الدعوة إلى الإسلام، نقلاً عن الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب، والنقد - ص٩٧، ٩٨، (لعدم توفر المصدر).

إسلاميّةٍ في العالم عن هذه الطّريق؛ وهي (أندونيسيا)، كما لا يمكن لنا أن نتجاهل ذلك المدّ الإسلاميّ الكبير –الذي أخذ منذ فترةٍ طويلةٍ– يغزو بلاد الغرب المسيحيّ –أيضًا– "فلقد كانت استجابة الغرب للإسلام في محيط المثقفين الغربيين أوسع ممّا يظنّ الكثيرون، لأنها تخطّت ذلك إلى رجال اللاهوت أنفسهم، فقد كتب سبعةٌ من الرّهبان كتابا يقرّون فيه ببشريّة المسيح، التي أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا"[1]، ولا شكّ أن هذا يصبّ مباشرة مباشرة في دائرة التصوّر الإسلاميّ للخالق(ﷻ) وممّا لا شكّ فيه أنه بمجرّد المقارنة بين التصوّر الإسلاميّ للخالق (ﷻ)، وبين التصوّر النصرانيّ، أو اليهوديّ، أو أيّة (ديانةٍ) وضعيّةٍ، يظهر الفرق جليّا بين طرفي المعادلة، وسوف نعرض فيما يلي لبعض تلك الملامح في التصوّر الإسلاميّ، والتي تتركّز على التوحيد بأنواعه الثلاثة على وجه الخصوص، وهي كما يلي:

٢– التصوّر الإسلاميّ للكون:

إن الكون بسماواته وأرضه ونجومه وكواكبه هو في الفكر والتصوّر الإسلاميّ آيةٌ من آيات الله الكبرى، وشاهدٌ على وجوده، وكماله، وجلاله، والكون بما فيه من مخلوقاتٍ، هو جزءٌ من الغيبيّات التي اختصّ الله بها ذاته (ﷻ)، "والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان... وهي نقلةٌ بعيدة الأثر في تصوّر الإنسان لحقيقة الوجود كلّه.. وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرةٍ، وتدبيرٍ..، وأن وراء الكون حقيقةٌ أكبر من الكون.. حقيقة الذات الإلهيّة، التي لا تدركها الأبصار، ولا تحيط بها العقول"[2]، والقرآن يلحّ علينا في الكثير الكثير من آياته، ويدعونا للوقوف أمامه وقفة تأمّلٍ، وتفكّرٍ، وتدبّرٍ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

(١) الجندي، أنور، مسؤوليتنا تجاه الغرب في تبليغ إسلام القرآن والسنة (على طريق الأصالة ٣٧)، (القاهرة، ط دار الاعتصام للطبع والنشر) ص٨، ٩.
(٢) قطب، في ظلال القرآن، مج١، ج١، ص٣٣، ٣٤.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ (١). ولقد استجاب الكثير من الشّعراء فوقفوا خاشعين، ومتبتّلين ومتبتّلين أمام عظمة الخالق، وروعة المخلوق، وها هي الشّاعرة "شريفة فتحي" تبرز أهمّ ملامح التصوّر الإسلاميّ للكون. فتقول:

تباركـــــتَ يـــــا ربّ مِـــــنْ خَالـــــقٍ　　صنعـــتَ فأبدعْـــتَ أبْهـــى الصّـــورْ
ألا كيــــفَ أحييــــتَ هــــذَا الــــترابَ　　وأنــــبتَ فيــــهِ ظليــــلَ الشّجــــرْ
ونسّقتَ يا ربّ حسنَ الزّهــــورِ　　وأخرجتَ منهَا الجَنَى وَ الثمــــرْ (٢)

ثمّ إن ذا الكون الهائل الممتدّ، والذي لا يعلم مداه ومنتهاه إلا الله (ﷻ)، هذا الكون "ببحاره الزّاخرة بما ينفع الناس، وأرضه الحافلة بالغذاء والنماء، وسماواته المرصّعة بالنّجوم؛ هداية للإنسان في ظلمات اللّيل، وجباله المعانقة للغيوم، وطيره السّابح بلحمه الشّهيّ، وحيوانه السّارح بالمنافع التي لا تحصى.. كلّ ذلك مسخّرٌ لهذا الإنسان بنعمةٍ من ربّه"(٣) وفي وفي حين يبدو هذا الكون في نظر غير المسلم، جامدًا، هامدًا، ساكنًا، نرى أن من أهمّ خصائص التصوّر الإسلاميّ لهذا الكون؛ أنه متجاوبٌ، حيٌّ، حسّاسٌ، يقبل، ويرفض، وينادى فيجيب، تعرض عليه بعض التكاليف فيرفض تحمّلها، رفض عجزٍ وتقصيرٍ، لا رفض عصيانٍ، وتمرّدٍ.

وقد جلّى لنا شعراؤنا الكثير من مظاهر هذا التجاوب الكونيّ مع خالقه (ﷻ)، ومن صور هذا التجاوب؛ هذه الطّيور المحلّقة في سماء هذا الكون، والتي تشارك مخلوقات ربّها في العبادة، والتسبيح، وتلبّي نداء ربّها، وفي هذا تقول عليّة الجعّار:

الطيرُ تغدُو حرَّةً وتــروحُ　　وَالأفْقُ رحبٌ والفضاءُ فسيحُ

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.،

(٢) فتحي، شريفة، لهب وأمواج، (القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، والطباعة، والنشر ط١٩٦٤م) ص٧٥.

(٣) الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص١٠٥.

تشدو فينطلقُ الوجودُ مُرَدّدًا وَمُوحّدا.. فغناؤها تسبيحُ[1]
تسبيحُ[1]

ونمضي مع أفق هذا الكون لنستمع إلى تسبيحات مخلوقات الله، وابتهالاتها لباريها، فها هو محمود حسن إسماعيل، يتأمّل تلك الفراشة التي حطّت فوق الزّهور، راكعة ساجدة، مسبّحة بحمد ربّها، وباريها:

وراهـبةٍ فـي الضّـحَى أوقـدتْ مـنَ الزّهـرِ مَجمـرةً زاكيَـة
إذا فـاحَ مِـنهَا الـعطرُ النَّـدِيّ وطـوّفَ فـي الأيـكَةِ الضّاحِيَـة
تـصـلي.. فـتركعُ فـوقَ الغصـونِ وتسجـدُ فِـي معـبَدِ الرّابِـيَة
وتُصـغِي لهمـسٍ أطـارَ الشّـعاعُ ترانيمُـه فِـي الرّبـا الصَاحِـيَة[2]

٣- التصوّر الإسلاميّ للحياة:

الحياة مسرحٌ كبيرٌ ممتدٌّ، تجري على خشبته أحداثٌ متنوّعةٌ، ومواقف متباينةٌ، منها السارّ، ومنها المحزن، منها النافع، ومنها الضّارّ، منها القبيح، ومنها الجميل، منها المضحك، ومنها المبكي، منها المنحرف، ومنها المستقيم، وفيها البرّ، وفيها الفاجر، فيها المؤمن، وفيها الكافر...، أطيافٌ متباينةٌ، ومتنوّعةٌ باختلاف البشر وتنوّعهم، "فالأدب الإسلاميّ يستوعب الحياة بكلّ ما فيها، ويتناول شتى قضاياها، ومظاهرها، ومشاكلها، وفق التصوّر الإسلاميّ الصّحيح للحياة، ولا يزيّف الحقيقة، أو يخلق وهما فاسدا، أو يحابي ضلالا، أو يزيّن نفاقا، ويطلق نيرانه على شياطين الانحراف، والقهر، والظّلم، ومن ثمّ ينهض بعزائم المستضعفين، وينصر قضايا المظلومين، ويبشّر بالخير، والحبّ، والحقّ، والجمال"[3]، وفي المقابل نجد المدارس، والنظريّات الفلسفيّة تفتقر إلى مثل هذه النظرة الشّموليّة للحياة، فنراها تركّز على

(١) الجعار، علية، ابنة الإسلام، ديوان (القاهرة، الإسكندرية د.ط المكتب المصري الحديث)، ص١٢٧.
(٢) حسن إسماعيل، محمود، أغاني الكوخ، ديوان، (القاهرة، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٦٧م) ص٢١٢، ٢١٣.
(٣) الكيلاني، نجيب، مدخل إلى الأدب الإسلامي، (قطر، الدوحة، رئاسة المحاكم الشرعية، ط١، ١٤٠٧) ص٣٤.

جانبٍ دون جانبٍ، فبعضها يركّز على الفرد دون الجماعة [١]، وبعضها يركّز على الجماعة ويهمل الفرد[٢]، والبعض ينكفئ على ذاته متشائما[٣] دون أيّة نظرةٍ للجانب المضيء في هذه في هذه الحياة، والبعض يحاول التركيز على الجوانب السّلبيّة في الحياة، وعلى لحظات الضّعف البشريّ، وكأنها ماثلةٌ للعيان، فيصوّرها أدق تصويرٍ، دون أيّ تحفظٍّ، لذا يجب على الأدب الإسلاميّ أن يصوّر الدّور الحقيقيّ للحياة، وللكائنات الموجودة على ظهر الأرض، انطلاقا من الفكر الإسلاميّ، الذي يتعبّد من خلاله كل شيءٍ لله وحده، "فالأدب الإسلاميّ ليس "عبثيًّا" ولا يمكن أن يكون كذلك، فليست الحياة، ولا قصّة الخلق، أو دور القدر، ولا حادث الميلاد، أو الموت، ليس ذلك كلّه عبثا،.. إنها امتحانٌ وتجربةٌ، إنها دار أعمالٍ، خلقت لهدفٍ، وغايةٍ، ورسم لها الخالق سننا، وشرائع، ونظما، وقيما، والمؤمن يستطيع أن يستوعب دوره الصّحيح"[٤]، ومن هنا كان لا بدّ من التعامل على أساس هذا المفهوم من الشّموليّة، التي من شأنها أن تعالج أسرار الحياة، وينفذ من خلالها إلى جوهر الوجود الإنسانيّ، بحيث يتميّز الأديب برؤيته الكلّيّة الثاقبة للحياة، والتي تضع الأمور في نصابها[٥].
نصابها[٥].

وهنا تستوقفنا قصيدة هاشم الرّفاعيّ "رسالة في ليلة التنفيذ" التي تعدّ من عيون الشّعر الإسلاميّ في التعبير الصّادق عن مواقف الإنسان من الحياة، والموت، والبعث، والنّشور، فالحياة مزيجٌ من الألوان المتباينة، فإذا غلب لونٌ على لونٍ، وإذا عمّ الظّلم، وانتشر الفساد، وأثخن الطّغاة في المسلمين، وأهل الحقّ، تعذيبًا، وتقتيلًا، وتشريدًا..؛ فهذا كلّه في نظر

---

(١) ينظر: الجهني، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج٢، ص٩٢٣.

(٢) ينظر: الباشا – نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص٨٤.

(٣) ينظر: بدر، عبد الباسط، مذاهب الأدب الغربي "رؤية إسلامية" (الصفاة، الكويت، شركة الشعاع للنشر، ط ١٤٠٥هـ ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م) ص٤٦، ٥٩

(٤) الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص٣٥.

(٥) الشنطي، محمّد صالح الشنطي، في الأدب الإسلامي.. قضاياه وفنونه ونماذج منه (حائل، السعودية، دار الأندلس للنشر، للنشر، والتوزيع ط١ ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م) ص٨٨، ٨٩ " بتصرف".

المسلم سنةٌ من سنن الله في الكون، ولا بدّ أّن تسير عجلة الحياة، ولا بدّ من الصّبر، فالمسلم لا يلين، ولا تنكسر شوكته. يقول الشّاعر:

هــذا دَمِــي سَيَــسِيلُ، يَجْــري مُطْفِئًــا مـــا ثارَ فِـــي جَنْبَـــيَّ مـــنْ نـــيرانِ
وفـــــؤاديَ المـــــوّارُ في نَبَضـــــاتهِ ســـيكفّ فـــي غـــدِهِ عـــنِ الخَفَقـــانِ
والظلـــمُ باقٍ لـــن يحطّـــمَ قيـــدَه مـــوتي ولـــنْ يـــودِي بـــهِ قُرْبـــانِي
ويســـيرُ ركـــبُ البَغـــي لـــيسَ يَضِـــيرُهُ شـــاةٌ إذا اجتـــثتْ مـــنَ القُطعـــانِ(١)

وفي إطار التوازن الدّقيق للإسلام، وانطلاقًا من النظريّة الإسلاميّة -في نظرتها المتوازنة للكون، والوجود- فإن الحياة لا تسير على هذه النمطيّة فقط، ولا يظنن ظانٌّ أنها دعوةٌ للفقر، والرّهبنة، والتربّص، والمراقبة، والمحاسبة فقط، بل هي دعوةٌ للعمل، والجدّ، والاجتهاد، وتحصيل المال، والسّيطرة على الحياة، وتملّك مواردها، وثرواتها(٢)، بل يجب على المسلم أن يأخذ منها بقدر ما يستطيع، ولكن ضمن ثوابت التصوّر الإسلاميّ، فالمؤمن القويّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، والقوّة في الجسم، والقوّة في الرّمي، والقوّة في التحصيل العلميّ، والقوّة في الغنى، والتحصيل المادّيّ، (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ)(٣)، بهذه النظرة للحياة نستطيع التأسيس لنظريّةٍ أدبيّةٍ إسلاميّةٍ، تقوم

(١) الرفاعي، هاشم، المجموعة الكاملة، ديوان، جمع وتحقيق: بريغش، محمّد حسن بريغش(الرياض، مكتبة الحرمين، ط١ ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م، ص٣٠٠.

(٢) ينظر/ الجندي، أنور، دراسات إسلامية معاصرة ، العلم في الإسلام، (بيروت، صيدا، لبنان، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م، ص٦٤.

(٣) البخاري، محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمّد زهير بن ناصر الناصر، (بيروت، لبنان، طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، باب حجة الوداع، رقم الحديث: ٤٤٠٩، ج٥، ص١٧٨.

ينظر كذلك: النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ط)، باب: الوصية بالثلث، رقم الحديث: ١٦٢٨، ج٢، ص١٢٥٠. كما ذكره الترمذي باب الوصية، رقم: ٢١١٦، ج٣، ص٥٠١، وجاء في سنن البيهقي باب الوصية بالثلث، رقم: ١٢٥٦٥، ج٦، ص٤٣٨، وفي مسند أحمد، مسند أبي إسحق، رقم: ١٤٨٨، ج٢، ص٢٣١، وفي سنن ابن ماجة باب القناعة، رقم: ٤١٣٨، ج٥، ص٢٥١، وفي سنن الدارمي، باب الوصية بالثلث، رقم: ٣٢٣٩، ج٤، ص٢٠٣٨، كما ورد في أكثر =

على أساسٍ من الشّرع، ومن التوازن.

٤-التصوّر الإسلاميّ للإنسان:

لقدْ أولى الفكر الإسلاميّ الإنسان اهْتمامًا خاصّا، وكبيرًا، باعتباره العنصر الرّئيس في هذه الحياة، التي تعتبر المعادلة الصّعبة التي لا يمكن حلّ لغزها إلا من خلال هذا المخلوق الضّئيل بحجمه، العظيم برسالته، وبالتكاليف التي كلف بحملها دون سائر المخلوقات.

الإنسان هو موضوع النّتاج الأدبيّ، ومنطلق إبداعه، منذ القدم، "فقد تميّز الأدب خلال تطوّره الطّويل بالنّفوذ المتزايد إلى عالم الإنسان الدّاخليّ، ممّا يدفعنا إلى القول بأن الموضوع الأساسيّ في التصوير الأدبيّ هو الإنسان..، وانسجاما مع هذه المساحة التي شغلها الإنسان، فقد كانت موضوعاته واسعة -أيضًا- سعة تتناسب وأهميّته، ومكانته التي يشغلها في هذا الكون، وسعة الإسلام ذاته، الذي يستمدّ منه عقيدته، وفكره، وإنسانيّته "فالإنسان الذي يتحدّث عنه الأدب الإسلاميّ؛ هو ذلك النّموذج الطّبيعيّ الذي صوّره القرآن الكريم، وكتب السّيرة، وتناولته أحاديث الرّسول (ﷺ)، وحفلت به كتب التاريخ"[١]، ومن مظاهر احتفاء الإسلام بالإنسان، أن كرّمه ربّه -سبحانه وتعالى-، وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق، وأسجد له الملائكة المكرمين، سجود طاعةٍ لله (ﷻ)، وتكريمٍ لآدم، لا عبوديّة له[٢]، الإنسان هو خليفة الله على أرضه،"وهو في نظر الإسلام ليس شقين منفصلين: شقا أرضيا "يعمل"، وشقّا سماويّا "يتعبّد"، إنما العبادة عملٌ، والعمل عبادةٌ، والإنسان بشقيه شيءٌ واحدٌ، لأنه منذ مولده الأوّل قبضةٌ من طين الأرض، ونفخةٌ من روح الله، ممتزجتين غير منفصلتين" [٣] "ولا تتمّ إنسانيّة الإنسان إلا بهذين العنصرين، ولا يتحقق كماله إلا بتوازنهما، فليس للمسلم

=

كتب الحديث.

(١) الكيلاني، نجيب، آفاق الأدب الإسلامي، (بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م) ص٣٦.

(٢) الطبري، محمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: شاكر، أحمد محمَّد، (بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ=٢٠٠٠م) ج١، ص٥١٢.

(٣) ينظر/ قطب، منهج الفن الإسلامي، ص١٠٠، ١٠١.

أن يبخس الجسد حقه، ليزيد من حقّ الرّوح، وليس له أن يبخس الرّوح حقها لمرضاة الجسد، وهو يسير بجسمه على الأرض، ويسمو بروحه إلى السّماء"[1]، ويمثّل هذا الانسجام الانسجام الفطريّ بين المادّة والرّوح، الانسجام مع نظام الكون بشكلٍ عامٍّ، على مستوى الأسرة، وتربية الأبناء، واختيار الزّوجين، والمعاملات، والتصوّر الإسلاميّ للكون، والوجود، من عقيدةٍ، وحياةٍ، وموتٍ، وبعثٍ، ونشورٍ، وأن الانحراف إلى جانبٍ دون آخر، في النفس البشريّة يصادم الفطرة، والقيم، والمثل، ونظام الكون بشكلٍ عامٍّ[2].

وقد عبّر الشّاعر؛ عمر بهاء الأميريّ، عمّا يتجاذب الإنسان من نوازع، وأهواء، وخلجاتٍ، فقال:

تذبــذبَ بــينَ الــرّوحِ وَالطّــينِ عُنصــرِي ... فــلا الطيــنُ يُــرْديهِ، ولا الــرّوحُ يُعليــهِ
تركــتُ شِــرَاعِي فــي العُبــابِ مُسَــلمًا ... لعــــلّ رياحَ اللهِ بــــاللّطفِ تزجِيــــهِ
ووجّهــتُ أعمــاقِي وَروحِــي وَطِينَــتِي ... إلــى اللهِ أرْجــو عنــده خيــرَ تَوجِيــهِ[3]

فالشّاعر المسلم لا يكابر، ولا يتعامى عن أصله الطّينيّ، وأنه تتجاذبه نوازع الطّين، والخلود إلى الأرض، ثمّ تجيء أخرى فتحاول أن تستنهضه، وتسمو به إلى السّماء، ولا يمكن لأحدٍ أن يعايش مثل هذه المشاعر المتشابكة، ولا أن يعي مثل هذه القيم، سوى المسلم المنسجم مع ذاته، والذي يدرك بأن هناك صراعا حقيقيّا، بين قطبين متنافرين، يعيشان معه، ويلازمانه حتى مماته؛ هما الفضيلة والرّذيلة، الخير والشّرّ، والصّراع الذي ينشب بين هذين الطرفين يؤدّي إلى مكابدةٍ، لا بّد أن ينهض الإنسان بأعبائها، فيأتي الأديب ليصوّرها، ويلتقط نبضها:[4]

(١) الباشا، عبد الرحمن رأفت ، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص٤٠.
(٢) ينظر: الهاشمي، محمّد عادل الهاشمي، في الأدب الإسلامي.. تجارب ومواقف (دمشق، سوريا، دار القلم-بيروت، لبنان، لبنان، دار المنارة، ط١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م) ص٦٧، ٦٨.
(٣) الأميري، مع الله، ديوان، ص١٠٤.
(٤) الشنطي، في الأدب الإسلامي.. قضاياه وفنونه ونماذج منه، ص٨٨ " بتصرف".

يَتَعاقبانِ عليّ: طينٌ هَابِطٌ وَشُعاعُ شَوقٍ منقذٍ نَادَانِي[١]

وها هو الشّاعر شريف قاسمٌ، يشكو إلى الله حيرته، وشجونه، وزلاته، وذنوبه:

يا عليمـــــا.. بِحَـــــيرتي وَاكْتئـــــابي وَشـــــجوِني وَحَســـــرَتي واضْـــــطِرَابِي

بـــين حزنـــي وفَرحَتـــي وَمَـــشِيبي -وبِفـــوْدَيّ نـــورُه- وشـــبَابي

وذنـــوبي وَمـــا جَنـــتْ هفـــوَاتي في دَياجِـــيرِ عـــالمٍ صَخّـــابِ[٢]

ولكن الشّاعر لم يستسلم لهذه السّلبيّات، ولم يتقوقع على نفسه، فلديه رصيدٌ إيمانيٌّ ضخمٌ، يلجأ إليه في مثل هذه المنحدرات الصّعبة من حياة الإنسان، حيث يلجأ إلى خالقه(ﷻ) يطلب منه العون، والمساعدة، للتغلّب على هذه الوساوس الشّيطانيّة.

يا إلَهـــي خلقتـــني فـــوقَ أرضٍ مَلأَتْهَـــا وَســـاوسُ الشّيطـــانِ

فـــأعني عَلَـــى خَـــواطرِ نفســـي وعلَـــى كـــلّ شهـــوةٍ وافْتِنَـــانِ[٣]

ومن الطّبيعيّ أن يشعر المرء بالوحدة، والوحشة، وتنتابه لحظاتٌ من الضّعف، والحزن، وهو يحسّ الإسلام نبضة في قلبه، وزفرة في صدره، ودماء حرّى تتدفّق في شريانه، وصرخة مدوّية في أعماق ضميره، ثمّ يتلفّت من حوله فلا يرى للإسلام على الأرض موقعا، والكفر، والفسق، و الإلحاد يملأ المكان، فأين المذهب، وأين القرار:

وأصـــبحَ لا يُـــرَى في الرّكـــبِ قَـــومِي وَقـــدْ عَاشُـــوا أَئِمّتـــهُ ســـنينا

وآلَمَـــني وآلـــمَ كـــلّ حُـــرٍّ ســـؤالَ الـــدّهرِ أيـــنَ المسـلِمُونَا[٤]

إنها حالةٌ نفسيّةٌ يعترف بها الإسلام ولا يصادرها؛ شرط ألا تتحوّل إلى حالةٍ مرضيّةٍ

(١) الغزالي، عصام، لو نقرأ أحداق الناس (المنصورة، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر)، ط١، ص١٣.

(٢) قاسم، شريف، متى تعودون (عمان، الأردن، دار الضياء للنشر، والتوزيع، الدوحة، قطر، المكتبة العربية للنشر والتوزيع، والتوزيع، ط١، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م) ص٦٧.

(٣) قاسم، متى تعودون، ص٦٧.

(٤) الرفاعي، المجموعة الكاملة، ديوان، ص٣٨٣.

يمكن أن تؤدّي إلى الضّياع والتّيه، والتمزّق، كما حدث مع الرّومانسيّين.

ويلجا الشّاعر المسلم إلى عنصر "الإنسان" في الذات البشريّة، فيحاول أن ينميّه، ويرفع من شأنه، ويدفعه إلى العزّة، والكرامة، والترفّع عن الذلّة، والهوان، والانكسار، والصّغار، "فلا يمكن للجسم إذا فسدت خلاياه، أن يصلح بناؤه، ولا يمكن للجماعة إذا فسد أفرادها، وذلّوا؛ أن تكون جماعة قويّة، معافاة"[١]:

فـــاربأ بِنفســـكَ أنْ تكـــونَ وَأنـــتَ ذُو الـــرّوحِ المكـــرّمِ لِلهـــوانِ أسيـــرَا
إنَّ الـــذِي بِيَدِيـــهِ صَاغَـــكَ ســـيِّدًا لـــلأرض يغضـــبُ أنْ يَـــراكَ حَقِـــيرَا[٢]

ومن الصّور الوجدانيّة، ذات البعد الإنسانيّ العميق، صورة الأمّ التي رسمها الشّاعر (هاشم الرّفاعيّ) لوالدته التي كانت تنسج الأحلام الورديّة، بمغزل الأمل، والحبّ، حيث يتجلّى في هذه القصيدة الكثير من المواقف الإنسانيّة، التي تغوص داخل النفس البشريّة، لتسبر قيمها، وأخلاقها، وطرائق تفكيرها، وحالات ضعفها، وقوّتها، في محاولةٍ يستبطن الشّاعر من خلالها أغوار نفس الأمّ، ويكشف عن حالةٍ شعوريّةٍ، وعاطفيّةٍ خاصّةٍ، ولكنها في الوقت ذاته، تعبيرٌ عن مشاعر إنسانيّةٍ عامّةٍ، تعبيرٌ عن تيّار الأمومة الإنسانيّة، بشكلٍ عامٍّ، وما يسيطر عليها من عواطف، ومشاعر، وأحاسيس:

مَـــا زالَ فـــِي سَمعِـــي رنـــينُ حَديثِهَـــا ومقـالِهَـــــا فِـــــي رحمـــــةٍ وحنـــــانِ
أبـــنُيّ إنّـــي قـــد غـــدوتُ عليلـــةً لـــم يبـــقَ لِـــي جَلَـــدٌ عَـــلَى الأحـــزانِ
فـــأذِقْ فـــؤادي فرحـــةً بـــالبحثِ عـــنْ بنـــتِ الحـــلالِ وَدَعْـــكَ مِـــنْ عصْـــيانِي
كـانـــت لهَـــا أمنيّـــةً رَيّانـــةً غُزلَـــت يـــا حُـــسنَ آمـــالٍ لهـــا وأمـــانِ[٣]

وهكذا.. استطاع الشّاعر أن يرسم هذه اللّوحة التصويريّة، الإنسانيّة العامّة، والتي

(١) ساعي، أحمد بسام، الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، (جدة، السعودية، دار المنارة للنشر، ط١، ١٩٨٥م) ص٨٤. ص٨٤.
(٢) المرجع نفسه: ص٨٤.
(٣) الرفاعي، المجموعة الكاملة، ديوان، ص٣٠٠.

نسجت خيوطها، واصطبغت ألوانها، بدموع الحسرة، والحزن، وألم الفراق، والتي تتطابق كلّ التطابق مع الكثير من المواقف الإنْسانيّة، والتي تتكرّر مرّاتٍ ومرّاتٍ كلّ يومٍ، وربّما كلّ ساعةٍ.

كما يجدر بنا أن نرسم الصورة الحقيقية للحياة كما هي، ذلك أن التصوّر الإسلاميّ يقوم في أساسه على الواقعيّة، فلقد خلق الله (سبحانه) الإنسان، ويعلم ما يعتريه من حالات القوّة، والضّعف، الخير، والشّرّ، التذكّر، والنّسيان، النشاط، والفتور.. هذا هو الإنسان كما أراده خالقه (سبحانه)، إنسانًا وليس ملاكًا ولا شيطانًا، يخطئ ويصيب، يسمو وينخفض، يذنب ويستغفر، يحزن ويفرح، فالإسلام لا يهمل شيئًا من كلّ ما سبق، "كما لا يفرض عليه شيئًا خارجًا عن طبيعته، فالطّاقات الجنسيّة، ونزعة التملّك، والحبّ والكره، والنّزوع إلى القوّة، والرّغبة في التغلّب والغلبة..، حقائق يعترف بها الإسلام،غير أنه يضع لها الضّوابط حتى لا تتحوّل الرّغبات الجنسيّة إلى فواحش..، ونزعة التملّك إلى اغتصابٍ، ولا ينحدر الحبّ والكره إلى التسفلّ والأذى، ولا تتحوّل القوّة، والرّغبة، والغايات الكبرى، إلى عدوانٍ.."[(١)]، هذا هو التصوّر الإسلاميّ للإنسان، التصوّر الشّامل، المتوازن، الواقعيّ، الذي يرصد حالات النفس البشريّة، وما يتجاذبها من مشاعر القوّة والضّعف، السّمو والانحدار، القلق والطّمأنينة، لينهض بها، ويأخذ بيدها في أحلك الأوقات، وأصعب المواقف، بعيدًا عن الأنانيّة، وحبّ الذات.

النتائج والتوصيات:

١- أثبت الأدب الإسلامي جدارته وقدرته على معالجة كل قضايا الإنسان النقي؛ فشق مجراه وسط تلك الغابة المتشابكة من الآراء، والنظريات، والمدارس التي حاولت جاهدة تدمير القيم والأخلاق واللغة، في محاولة جادة للتأثير على عقول الناشئة من شباب الأمة.

٢- الأدب الإسلامي أدب أصيل، يستطيع الأديب من خلاله التعبير عن الذات، والكون والوجود، وعن علاقة الإنسان بهذا الوجود كله، وبخالقه -سبحانه وتعالى- وفق

(١) الباشا، عبد الرحمن رأفت، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، ص١١٥.

التصور الإسلامي للكون، والإنسان والوجود.

٣- الأدب الإسلامي أدب الفطرة السليمة النقية.

٤- الأدب الإسلامي لا يحجر على الأديب عواطفه، ولا مشاعره، حتى في أدق شؤون حياته، مادامت متوافقة مع قيم الإسلام، ومبادئه.

٥- للمبدع المسلم دور الكبير (كاتبًا- ناقدًا- مفكرًا) منطلقًا خارج الجغرافيا المحلية، نحو الكون كله، في سبيل نشر الخير، والفضيلة، وإخراج الناس من نكد الدنيا، ومما تعانيه البشرية من بؤس، وشقاء.

٦- هناك فرق حقيقي بين الأدب الديني الذي يعالج القضايا الدينية من صلاة، وصيام، ومناسبات دينية...، وبين الأدب الإسلامي الذي يقرأ الكون كله كتابًا مفتوحًا، يتسع لكل قضايا، وهموم الإنسان، مما يعني أن دائرة الأدب الإسلامي أكثر رحابة من الأدب الديني، فكل أدب إسلامي هو أدب ديني، وليس كل أدب ديني أدب إسلامي.

٧- لقد قامت جامعاتنا طيلة عقود طويلة من الزمن بتدريس أبنائنا المدارسَ، والنظرياتِ الغربية، فحبذا لو أفسحت المجال الآن لتدريس النظرية الإسلامية في الأدب والنقد، ليتسنى للطالب المقارنة، والحكم من جهة، ولنكرس، ونبني ملكة النقد المحايد عند أبنائنا الطلاب من جهة أخرى.

٨- تشجيع طلاب الدراسات العليا على خوض غمار الدرس، والتنظير للأدب الإسلامي ونقده.

المصادر والمراجع

١)ابن حميد، صالح بن عبد الله (رمضان-ذو القعدة ١٤٢٨هـ=تشرين أول/أكتوبر-كانون أول/ ديسمبر٢٠٠٧م) مجلة الادب الإسلامي، الأدب المعاصر: رؤى في المضامين، (مقال)، مج١٤، ع٥٦.

٢)أبو الوفا، محمود، (١٩٦٢م) شعري، ديوان (د.ط)، القاهرة: دار المعارف المصرية.

٣)أبو صالح، عبد القدوس (٢٠١٠/٧/٢١م) الأدب بين الالتزام والإلزام، موقع الألوكة.

٤)أبو ماضي، إيليا، (١٩٧٢م)، الجداول، ديوان، (ط٩) بيروت: دار العلم للملايين.

٥)إسماعيل، محمود حسن (١٩٦٧م) أغاني الكوخ، ديوان (ط٢)، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

٦)الأميري، عمر بهاء الدين، (١٣٩٢هـ) مع الله، ديوان، (ط٢) بيروت: دار الفتح.

٧)الباشا، عبد الرحمن رأفت، (١٤٠٥هـ=١٩٨٥م) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، الرياض: مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٨)البخاري، محمد بن إسماعيل، (١٤٢٢هـ) صحيح البخاري، (ط١) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت، لبنان، طوق النجاة.

٩)بدر، عبد الباسط (١٤٠٥هـ=١٩٨٥م) مذاهب الأدب الغربي "رؤية إسلامية"(د.ط) الكويت الصفاة: شركة الشعاع للنشر.

١٠) بدر، عبد الباسط (١٤١٥هـ=١٩٩٥م) مجلة الأدب الإسلامي، عالمية الأدب الإسلامي، (مقال)، السنة الثانية، الرياض، مج٢، ع٥.

١١) ابن طاهر، عيسى، النقد في الرؤية الإسلامية، موقع: البلاغ.

١٢) الجعار، علية (د.ن) ابنة الإسلام، ديوان، (د.ط) القاهرة، الإسكندرية: المكتب المصري الحديث.

١٣) الجندي، أنور (د. ن) خصائص الأدب العربي، (د.ط) بيروت: دار الكتاب اللبناني، القاهرة: دار الكتاب المصري.

١٤) الجندي، أنور (١٤٠٢هـ=١٩٨٢م) دراسات إسلامية معاصرة، العلم في الإسلام، (ط١)، بيروت، صيدا: المكتبة العصرية.

١٥) الجندي، أنور (د.ن) مسؤوليتنا تجاه الغرب في تبليغ إسلام القرآن والسنة، على طريق الأصالة، (د.ط)، القاهرة: دار الاعتصام للطبع والنشر، والتوزيع.

١٦) الجندي، أنور (د.ن)، عالمية الدعوة الإسلامية، سلسلة: على طريق الأصالة، (د.ط)، القاهرة: دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع.

١٧) الجهني، مانع بن حماد (١٤١٨هـ) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (ط٣)، الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر و التوزيع.

١٨) حكمي، حافظ بن أحمد (١٤١٠هـ=١٩٩٠م) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: أبو عمر، عمر بن محمود (ط١) الدمام: دار ابن القيم.

١٩) الرفاعي، هاشم (١٤٠٠هـ=١٩٨٠م) المجموعة الكاملة، ديوان، جمع وتحقيق: بريغش، مُحَّد حسن (ط١)، الرياض: مكتبة الحرمين.

٢٠) ساعي، أحمد بسام (١٩٨٥)، الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، (ط١)، جدة، السعودية: دار المنارة للنشر.

٢١) سعيد، خالدة، (١٩٨٤م)، الملامح الفكرية للحداثة –(مجلة فصول)، مج٤، ع٣.

٢٢) شكري، غالي (١٤١١هـ=١٩٩١م) شعرنا الحديث إلى أين (ط١) القاهرة، بيروت: دار الشروق.

٢٣) الشنطي، مُحَّد صالح (١٤١٤هـ=١٩٩٣م)في الأدب الإسلامي.. قضاياه وفنونه ونماذج منه – (ط١) حائل، السعودية: دار الأندلس للنشر والتوزيع.

٢٤) الصديق، أحمد مُحَّد (١٤٠٤=١٩٨٤) نداء الحق، ديوان، (ط٢) عمان، الأردن: دار الضياء للنشر والتوزيع.

٢٥) الطبري، مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م) جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: شاكر، أحمد مُحَمَّد،(ط١) بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٦) العزب، مُحَمَّد أحمد (١٩٧٨م)ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي، (د.ط) القاهرة: دار المعارف.

٢٧) العمراوي، عبد المجيد (١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م) الأدب الإسلامي ووضوح التصور، مجلة المشكاة، المغرب: مج٨، ع٣٢.

٢٨) الغزالي: عصام (د.ن) لو نقرأ أحداق الناس (ط١) المنصورة، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر.

٢٩) فتحي، شريفة (١٩٦٤م) لهب وأمواج، (د.ط)القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، والطباعة، والنشر.

٣٠) قاسم، شريف (١٤٠٨هـ=١٩٨٨م) متى تعودون، ديوان (ط١) عمان، الأردن: دار الضياء للنشر والتوزيع، الدوحة: المكتبة العربية للنشر والتوزيع.

٣١) القرطبي، مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (١٣٩٨هـ) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: السقا، أحمد حجازي، (د.ط) القاهرة: دار التراث العربي.

٣٢) قطب، سيد (١٤٠٦هـ=١٩٨٦م) في ظلال القرآن(ط١٢) جدة: دار العلم للطباعة والنشر.

٣٣) قطب، مُحَمَّد (١٤٠٣هـ=١٩٨٣) منهج الفن الإسلامي (ط٦) بيروت، القاهرة: دار الشروق.

٣٤) الكيلاني، نجيب (١٤٠٦هـ=١٩٨٥م) آفاق الأدب الإسلامي (ط١)، بيروت: مؤسسة الرسالة.

٣٥) الكيلاني، نجيب (١٤٠٧هـ) مدخل إلى الأدب الإسلامي)ط1(، الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية.

٣٦) النحوي، عدنان علي رضا (١٤١٥هـ=١٩٩٤م) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته (ط٣) الرياض: دار النحوي للنشر والتوزيع.

٣٧) النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري (د. ت) صحيح مسلم، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي (د.ط) بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٣٨) الهاشمي، مُحَمَّد عادل (١٤٠٧هـ=١٩٨٧م) في الأدب الإسلامي..تجارب ومواقف (ط١)، دمشق: دار القلم، بيروت: دار المنارة.